مرسلات مع الريح

فوق الصخرة السوداء

«رست بنا السفينة في مرفإ خيّل الينا أنّ ساكنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه . عيون تلمع كأنها الاقباس تحت جباه لوّحتها الشمس الحامية ، فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . أي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟»

ترنّحت السفينة فوق سطح الماء ولطمها الهواء فتمايلت ، ثم استدارت شامخة بأنفها السحوق نحو السماء ، وأرسلت من جوفها ذلك العويل الطويل كأنما هي تودع اليابسة قبل أن يحتضنها اليمّ الواسع العميق ، واستقبلت مخرج ميناء « دوفر » لتدلف منه إلى الخضم الأزرق ، المترامي تحت قدميها ، فتمخر فيه باسم الله مجريها .

ومضت تبتعد عن الشاطئ شيئاً بعد شيء ، والشاطئ يغيب عنها هوناً على هون ، حتى بدا كأنه ضباب كثيف لا تستبين فيه من شيء ، الا قمم المطرّحات من الابنية ورؤوس المداخن ترسل دخانها الاسود كأنما هي مجموعة من البراكين الثائرة ترسل من جوفها أفاعيل طبيعية غاضبة

ولقنا الماء ، واكتنفنا الغرق ، وأخذت آلات السفينة تهدر تهدار البراكين ، تجالد اليمّ واليمّ يجالدها ، تبج صدره بحيزومها وتضربه بذنبها الملوي كأنها أفعى تسترق الخطو في الظلام المسدل ، فيرد كيدها بأمواج كالجبال .

وبدت نجوم الليل ترسل بصيصها إلى ذلك العالم الأصمّ الذي كنا نجتازه ، وأخذت الشعرى تبرق وتكظم ، كالنادة اللعوب ، وبدا الفرقدان : وإذا شئت :

فاسأل الفرقدين عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهار وأنارا لمدلج في سواد

وأكل الناس وشربوا ومرحوا وأخذ السكرى يلاعب معاقد أجفانهم ، بعد أن أنهكهم الرقص وفعل يوم الريح ، وحتى للريح متاعبه ، هذا والسفينة لا تأخذها سنة ، والبحر يقظ يغالبها وتغالبه . وكيف ينام وهو ذلك الشيء الذي استيقظ مع الخليقة ولم تغف له عين ، ولا سكنت له حركة ، ولا اضطرب له قلب ، ولا اهتزّ له جنان . فكيف به يعبأ بتلك الذرّة من الهشيم ؟ انها تداعبه ولا ريب . هي ألعبة من ألعبائه ، بل خطرة من خطراته . كلاّ ، بل حلم مغيّب في جوف الزمن .

وما ذلك الصفير الأجش الذي يضرب السفينة بنبراته السريعة القوية ، فتميل ذات اليمين وذات الشمال ؟ انه ولا شك عبارات الترحاب يرسلها البحر إلى الذين ينزلون رحابه الواسعة .

وما ذلك الدوي البعيد الذي يكاد يفجر الصدور بعمقه ويخلع القلوب بروعته . تلك هي العاصفة : هي أغنية الأزل الأول .

* * *

كنا في منتصف يناير والهواء زمهرير والماء زبد يتهادى فوق قمم الموج أشبه بالتلال المتلاحقة في صحراء شهباء ، سطع عليها قمر مريض الضوء باهت اللون . ولم يبق على ظهر السفينة انسان يحيي هذه الطبيعة الصاخبة الغضبى ، فقد لاذ كل منهم بمنجى منها ، ولكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يغنيه .

واستدارت السفينة من حول شاطىء فرنسا الغربي ويممت نحو الجنوب وكلما أمعنت فيه انتعشت الأرواح ومرحت النفوس فقد استحال الهواء البارد المثلوج نسمات تخاطب القلب والعقل ، وأخذت ذكاء بأبهتها السماوية ، تحيينا كل صباح بأشعتها الذهبية ، وتردعنا كل مساء وهي منحدرة في جوف اليمّ الواسع مثيرة فينا بألسنة صفراء من نارها المتسعرة ، فكأنما هي في تحيتها ووداعها صديق من فقد الصديق ، في مثل عالمنا الذي كنا نقطع رحابه ، فوق ذات ألواح ودسر . . .

فلما كانت السفينة في نطاق دائرة الاستواء ، تغير لون الماء فاذا به أحمر قان كأنه الدم المهراق في رقعة لا يحدها البصر . وكان الى جانبي عالم أخذ طريقه الى الجزء الجنوبي من كرة الارض ليبحث طبائع بعض الاحياء في وهاد افريقية رطابها الموحشة . فلما أبديت دهشتي من تلك الظاهرة قال لا تدهش فالماء هو الماء ، وانما اللون من حيوانات مجهرية تتكاثر ثم تتكاثر في بعض فصول السنة ، فتصبغ البحر بهذا اللون الاحمر الارجواني . ثم انظر ألا ترى أشياء تثب من الماء ثم تغوص . إذا اقتربت سفينتنا منها فسوف تطير . هذا هو الخطاف ، وهو جنس من السمك الطيار يتخذ من زعانفه أجنحة ، فاذا أزعجها مزعج هبت هاربة ، تضرب بزعانفها الجانبية فترتفع فوق سطح الماء وتسير في الهواء مسافة . فاذا أخذ منها الروع ، وجدت من صدر البحر مثوى وئيداً واسع الجنبات . ثم ها هي ذي الصخرة السوداء .

***

أشرفنا عليها وهي قائمة في وسط اليم كأنها الحلم الفزع في خيال مضطرب . وقد استطالت قممها المشرفة على البحر وراحت تتطلع إلى سماء شملها الغيم الكثيف ، فكأنما هي امرأة مهجورة تناجي السماء بآلامها المرتسمة على صفحتها المربدة من ظلم الايام .

ودنت بنا السفينة في مرفأ خُيِّل الينا أن ما كنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه ، عيون تلمع كأنها الالماس تحت جباه لوحتها الشمس الحامية فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . اي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ ولكن السفينة لا بد من أن تتزود ، فألقت مراسيها على الصخرة السوداء ، يوماً وليلة .

وحملنا حب الاستطلاع على النزول إلى البرّ ، وأخذنا نضرب في نواحي المدينة حتى ألفينا عصا النوى في مكان هو مجتمع الادلاء ، فقال أحدهم : أأدلكم على الكوخ الاثري ؟ قلنا وما هو ؟ قال كوخ فيه كتاب سطوره الحياة ، وسطور الحياة كلها مكتوبة على صفحة واحدة خطتها يد القدر . فسأله أحدنا أورقة تعني ؟ قال نعم .

ووقفنا أمام الكوخ الاثري فاذا به حظيرة بها جياد لحامية تلك الصخرة السوداء . رأينا الجياد . ولكن لم نر الكتاب ولا الصفحة التي خطتها يد القدر . قال لا تعجلوا ، فهنا في هذه الحجرة نزل ضيف جاء من وراء البحار ، وظل بها سنين ، فلما مات اتخذ الكوخ حظيرة للجياد .

ولكن هذه الحجرة قد تركت مغلقة احتراماً لذكرى ذلك الضيف . وأنتم ترون كيف

عى بها . فتلك الحشائش النابتة من خلال الجدران ، ومن بين الشقوق التي تتخلّـل الأرض، دليل على أن أصحاب الأمر هنا لم ينتهكوا حرمتها . وفي هذا القمطر ورقة مكتوبة هي طلبتكم : وأخذنا ننظر في الورقة التي خطتها يد القدر .

« في تـمة الأيام الأخيرة من حياته ظلّ هاذيا وفي غيبوبة . كانت الحركة تؤلمه ، وحتى اللمس كان يؤذيه . وفي اليوم الخامس من مايو تلفظ ببضع كلمات غير مستبانة، ولكن رفيقه « مونتولون » ظن أنه يقول « فرنسا — الجيش — رأس الجيش » .

«وما إن تحرك لسانه بهذه الالفاظ حتى وثب من فراشه ثائراً وجذب معهُ «مونتولون» الذي حاول أن يثنيه إلى الرشد ، فانطرحا معاً على الأرض . كان ذلك آخر جهد بذلته إرادة لا تردوقوة لا تقهر».

«وبعد صراع، استطاع مونتولون أن يرجعه إلى الفراش مستعيناً بزميله «أوشبور».وظل المريض في فراشه ساكناً حتى كانت الساعة السادسة من المساء، فبذل آخر أنفاسه. كانت عاصفة هوجاء ترسل بأهازيجها الصاخبة في خارج الكوخ ، التي أخذ يهتز من شدتها كما لو كانت زلزالا مارداً انتفضت منه الأرض . ها هي ذي العاصفة تقتلع شجرة الصفصاف التي كان يجلس اليها ذلك الخالد الفاني . وإذ كانت العاصفة تقتلع تلك الشجرة التي تفيأها الضيف الراحل، كان «مرشان»، أحد رجاله، يسجيه بالعباءة التي كان يلتفع بها قاهر الجيوش في موقعة مارنجو » .

* * *

يا لك من صخرة سوداء ! أنتِ يا جزيرة القديسة هيلانة . ويا لكَ من رجل ! أنت يا ابن فرنسا ! أنتَ يا نابوليون !

* * *

قبره الآن في باريس ، وقد درّ « البكري » إذ يقول :

« وقفت بقبر نابوليون أمس ، أحدث النفس ، عما في ذلك الرمس ، فهذا سكون بعد صولة ، وقبر في حرمه دولة ، وصولجان كرته الأرض ، أضحى عراق لاعب ، وسرير كان عليه البسط والقبض ، أمسى ملتقى ناع وناعب .